الأزمة الأولى

حنت الشفاه فالتقت وأبت أن تفارق الرحيق .

واستيقظت من نومى صارخاً :

— أحبها . . .

وطارت الأحلام فتحولت حياتى إلى أذنى . . .

صمت مطلق . . .

إذن فمن الهاتف بتلك الكلمة الحلوة . . .

وذهب الرعب بقلبى . إننى أهذى فى منامى ، وأهذى بصوت مرتفع يوشك أن يوقظ القرية بأسرها . إننى أهذى بتلك الكلمة التى لم أجرؤ أن أقولها فى النور ، بل لم أجرؤ أن أقولها فى اليقظة . إنها كلمة حلوة ولكنها رهيبة :

— أحبها . . .

وهل لفتى قروى فى السابعة عشرة من عمره أن يهتف بتلك الكلمة الساحرة الدنسة :

— أحبها . . .

ومن هى تلك التى أحبها ؟

استيقظ القلب ، وانطلق الخيال يسبح فى ضباب من الصور اللامعة المخدرة .

ثلاث سنوات قضيتها بالقاهرة بعد أن انتقل أبى إليها ، ولكن تلك المدينة العظيمة لم تحول من أخلاق الفتى الريفى ، ولم يستطع سحرها أن ينال من أخلاقه .

ثلاث سنوات . . . ثم هفا بقلبى حنين إلى قريتى ، فعدت إليها مع الصيف أحدث عهداً بمن بقى من الأهل ، وألتمس فى مراتع الطفولة حنان النشأة الأولى . وظفرت بالحنان .

ظفرت بماذا ؟

لست أدرى ! ولكنى أذكر فاطمة روح قريبى وهى تحيطنى بدفء من رعايتها وبدفء من حنانها . لقد قبلتنى يوم أوبتى قبلة الأمومة . ثم قبلتنى فى اليوم الثانى فانتفض جسدى من القبلة الثانية . إن لها مذاقاً لم يكن فى الأولى . وانقطعت القُبل . ولكنى لا أكاد أرفع بصرى حتى يلتقى بعينها الضاحكة ، فأحول بصرى ، ولكننى أشعر بعينها تجول فى صدرى ووجهى ، وتغمرنى بسيل من شعاع دافىء مخدر .

وتتابعت الأيام فأحسست شيئاً فشيئاً أننى لا أغادر المنزل ولا ألهو مع لداتى وصحبى . فأنا أسمر وأسمر مع فاطمة . ولم أكن كارها لهذا السمر ، ولكننى أيضاً لم أكن صاحبه ، فهى التى تتحدث ، وهى التى تمسكنى لديها وتربط حياتى بحياتها .

وما خطر لى السوء . وما كان لمثل قلبى الساذج أن يجول السوء به فى موقف يحوطه سياج من قداسة .

ولست أدرى أكان عفواً أم قصداً أننى لا أكاد أرمى ببصرى إليها حتى أشاهد ذراعاً عارية يلمع بياضها ويتفجر سحرها ، أو ساقاً ممدودة فى وضع فاتن يتراقص حوله الخيال . ولكننى أحس بأنها ما كانت قط تستر ذراعاً أمامى أو تغير من وضع ساقها إذا جال حولها بصرى .

وكان زوج فاطمة يدلف فى سرعة إلى شيخوخة مبكرة ، وكان كشأن الكثيرين من أبناء القرية لا متاع له فى الحياة إلا أن يسمر مع صحبه فى ليالى الصيف المقمرة فى ذلك المكان المرتفع بجوار مسجد القرية . ويمتد السمر عادة حتى يوشك صائح الصباح أن يهتف بدعوة النور .

وفاطمة امرأة لا تطيق الوحدة ، فهى تؤمن بالأشباح والأرواح الشريرة ، وتخشى عبثها وعدوانها بالليل ، فلا عجب إذا تعلقت بى ؛ لأسلى وحدتها حتى يؤوب زوجها .

ولطالما أن الزوج واستراح إلى وجودى ، فهو كفيل بأن يعفيه من الشنجار الدائم بينهما بسبب سهرته الليلية .

وكنا إذا جن الليل سارعت فاطمة فبسطت على سطح المنزل فراشاً وثيراً ، ونادت أن أصعد إليها تحت شعاع البدر فى هواء الصيف الفاتن لنمضى فى سمرنا .

وعاشت من فاطمة ما هى الحياة .

إنها تحدثنى عن تلك الأسرار الخفية الحبيبة ، أسرار الغرام بتلك القرية الصغيرة . وهل لفتى مثلى أن يعرف أن فى القرى غراماً ونجوى ؟

كنت لا أومن بهذا ، ولكن فاطمة ذكرت لى ألواناً وساقت إلى شتيتاً من قصص عجب .

وكنت أستلقى وأسلم إليها أذنى ، ثم أحلق بخيالى فى تلك الدنيا السحرية التى أستمع إليها ، وأسبح فى أحلام اليقظة .

وهل هناك أشهى إلى قلب فتى من أن يستمع إلى مثل هذا الحديث ! وفاطمة تعجب لجهلى ، ويعلو ضحكها لسذاجتى ، وتعجب أكبر العجب من فتى عاش فى القاهرة بلد الهوى والجمال ، ولم يحب ، ولم يسمع أقاصيص المحبين .

وكنت أعجب أنا أيضاً لهذا ، ثم اطمئن قلبى بأننى فتى آثر النقاء على العبث والمجون . ألم أشاهد زكية تلك الفتاة العبلة الفاتنة التى سلبت نعمة البصر ، وهى ترفع ثوبها ، فلم أكد ألمحها حتى غضضت بصرى وأغمضت عينى واستعذت بالله .

ولكن فاطمة تمضى فى حديثها ، فأشعر بدبيب غريب يتمشى فى قلبى ، وأشعر بشىء حى يتواثب فى صدرى بل فى جسدى كله . . . شىء حار متدفق ، ثم يغمر روحى خدر حنون فاتن حالم ، ثم يحتوينى ضباب أسبح فيه وأسبح ، فيصل إلىَّ صوت فاطمة أشبه بهمس يأتى من عالم مسحور .

ثم يطرق الباب طارق ، فأعلم أن صاحب المنزل قد آب ، فتهبط فاطمة وأهبط معها لاستقباله ، ثم ينصرف كل منا إلى حجرته .

ولست أدرى هل نامت فاطمة ، وهل نام زوجها ؟ ولكننى أنا لم أنم ! إننى أحلم وأتخيل بل أشعر بيقظة فى جسدى ، يقظة متوثبة متمردة لا تطيق الفراش ولا يواتيها النوم .

القمر والنجوم وكل شىء فى الطبيعة يهمس بالحب والجمال . هكذا خيل إلى وأنا سادر مسحور ، وفاطمة منى غير بعيد يغمرها ضياء القمر ، ويتلألأ على وجهها وجسدها شعاعه ، وهى تقص علىَّ قصة زوجها .

— إنه رجل بخيل مقتر ، ثم إنه عليل مريض ، ثم إنه . . .

ولكنى صرخت :

— كلا يا فاطمة ! إنه رجل نبيل ، إنه سيد القرية ورجلها .

قالت فى عبوس :

— إنه قريبك فلا عجب إن مدحته .

— قريبى ؟

أجل إنه قريبى ، وهذه المرأة زوجه تنال من كرامته بالقول وبغير القول . وانهالت علىَّ خواطر عجيبة عن الحياة وألوانها .

ولست أدرى أى صورة من صور الألم والغضب لبسها وجهى ، ولكننى سمعت صوت فاطمة تقول فى دلال :

— هل غضبت ؟

— كلا !

— لو ذكرت لك سرًّا فهل تبقى عليه ، ولا تغضب منه ؟

— إن السر عندى مقدس .

— قريبك يحب !

— ما ذا ؟

— يحب !

فقلت ضاحكا :

— مزاح عريب منك !

فأقسمت بالأولياء والصالحين أنه يحب فلانة التى توفى زوجها ، وهو يزورها ويهدى إليها الهدايا .

فهتفت بها :

— سيدتى ، إنك تتخيلين الدنيا كلها حبًّا وغراماً ، فكل إنسان يحب حتى زوجك الكهل الشريف

قالت :

— نعم ، كل إنسان يحب إلا أنت !

— كل إنسان يحب إلا أنا . . .

حقيقة كل إنسان يحب إلا أنا . . .

ألحت علىَّ تلك الفكرة القاسية : كل إنسان يحب إلا أنا ، وأنا لماذا لا أحب ؟ ولكن من التى أحبها ؟

استعرضت حياتى . إنها خالية من النساء . إننى أحب أمى ، وأحب عمتى ، وأحب

خالتى ، وأحب ... كدت أذكر اسمها ، ولكن وجهى التهب وركبنى الخجل ... وظل الخجل يلازمنى حتى أنقذنى الكرى .

ولكن هل نمت حقًا ؟ كلا لقد انتقلت إلى دنيا غير دنياى ، دنيا أحلام وأمانٍ ، عربد فيها الحلم ، كما عربد الخيال .

وكانت يقظة الصباح رهيبة . أشعر بخدر يلف أعضائى ويمسك بروحى ، وأحس رهبة من أن أغادر فراشى . إن الفراش هو دنياى ، وأنا غريب إذا فارقته .

ومرت ساعات النهار بطيئة ثقيلة ، وقلبى معلق بسهرة المساء ، وروحى تحن إلى سمر الليل . . .

وصور هذا الجسد الفاتن تراودنى وتحادثنى ، وتتمثل لى فى أوضاع يلونها الشيطان ، وتلونها الأمانى . . .

وفسد مذاق الحياة فى فمى ، وكرهت حديث لداتى ؛ لأنه يقطع على تصوراتى ، وعفت لهو أمثالى فى القرية ؛ لأنه يعطل أحلامى اليقظى . . .

غدوت فريسة للوجوم والذهول !

وجاء المساء . . .

وآن وقت السمر . . .

وتلون حديثنا بلون جديد . إنها تحدثنى عن موقف زوجها . إنه يصبو إليها ولكنها تصد ، لما أخذ يدركه من أعراض الشيخوخة والضعف . . . وهى الفتاة اللدنة الغضة التى اشتهى الزواج منها فلان وفلان ، وداعبها السيد العظيم ، وتمناها الرجل الكبير .

إنها ترثى نفسها بقصيدة نسوية معطرة بعبادة الجسم ، وترثى نفسها بدموع نسوية تثير الحنان وتثير القلب . . .

وأنا ، لى الله ، كنت أتقلب وأتلوى ، وأطوى جسدى وأنشره . تعصف بصدرى ريح عاتية أحس توثبها وثورتها . أحسها جبيسة تبغى الانطلاق والتدمير .

إن جسمى ثائر ، ونفسى تئن تحت ثقل الإحساس بالواجب . إننى أقاوم نار الرجولة الأولى فى دمى ، وصيحة النداء العنيف القوى . . .

أقاوم وأحترق ، ويكاد يقتلنى الظمأ إلى الرحيق . . .

وتسلمنى الفراش خامد الروح ثائر الجسم ، وتلاحقت الصور فى رأسى وطارت الكلمات بقلبى . . .

ثم طاف بذهنى خاطر جديد . إن ملامح فاطمة فى خيالى صورة من المعانى لا صورة من عالم الحس . إننى إلى اليوم أرهب النظر الدقيق إلى عينها . إن عينى لم تشبع من محاسنها . . .

آه . . . إننى ظامئ إلى جمالها . . .

هذا الحياء ، هذه المبادئ الجامدة العالية . إنها تصدنى وتردنى وتحول بينى وبين الفردوس .

— إننى ثائر . سأملأ عينى بجمالها . . .

ما هـذا الجحيم ؟ إننى أحس الحر ينضح من وجهى ، ويثب من أظافرى . دفء وحر . . . سعار من الجوع الملح العنيف . إن فى جسـدى زلزالا ، وأنا أسمع دمدمته ، وفى أعصابى بركانا أحس أزيزه . إننى قطعة من النار ، بل من الجحيم . . .

ومضى الليل بطيئا ثقيلا لم أنعم فيه بالكرى ، ولم أهنأ بتلك الغفوة الجميلة المريحة التى هى نعمة كبرى من نعم الحياة لا يحسها إلا من فقدها .

وكان صباح أحببته وما تمنيته . إننى أريد الظلام . أريد الخلوة والابتعاد عن صخب الحياة . أريد أن أعيش فى عالم كل مافيه خيال فاطمة وإشارة يديها وضحكتها الجميلة المتكسرة ، وعينها المنادية المحرقة .

وازداد مذاق الحياة فسادا فى فمى . إننى أجلس إلى الطعام فأتصور فاطمة ، فيشرد خاطرى حتى ينبهنى إلى الوجود من بجوارى . وأجلس إلى صحبى أصم أبكم حتى يناديني مناد أو يسخر منى عاتب . ويعجب من أمرى من يعجب !

إن فاطمة هى حياتى .

ولـكن هل أحب فاطمة هـذا الحب الطاهر الساحر الجميل الذى يضيف إلى الانسانية عطراً من عالم الروح ؟

هل أحب فاطمة هـذا الحب الذى تخيله الشعراء إلهاما وأنغاما ، وتخيله الرواة والقصاصون عالما من المعانى العلوية ؟

كلا . . .

ليس ما أحسه أنغاما من موسيقى الفردوس ، ولست أشعر بذلك النور العلوى ، ولا بتلك الأجنحة الملائـكية تحملنى إلى سموات المعانى والجمال .

إننى أحس شخصها يزحم شخصى ، ونداءها يوقظ قلبى ، وأشعر بخيالى يحوم حول ذراع وساق . . .

لقد تفتحت رجولتى على إغراء وإغواء . . .

لم أعرف تلك السعادة التى يتحدثون عنها فى أقاصيص الحب وأشعاره ، ولم أر الفردوس المفقود ، بل أحسست الجحيم الموجود . . .

إنه اشتهاء جسم لا نداء روح . . .

وهذا الاشتهاء تثور عليه طفولة طاهرة ، وتثور عليه نفس لم تتدنس ، بل تنفر أكبر النفور من العبث ، وتنفر أكبر النفور من هذا اللون من الخيانة .

لقد كانت طفولتى سعيدة ساذجة عابدة حتى أيقظها من أحلامها ذلك النداء .

وإن كان جسمى صبا ، فإن روحى لم تستسلم بل قاومت وأصرت على الوفاء .

ولكن هل لروح فتى مراهق أن تتغلب فى مثل هذا الصراع ؟ وهل تشعر فاطمة بتلك المعركة الرهيبة التى تمزق أعصابى وتحرق قلبى ؟ إنها أنثى تنشد الفوز ولا تعرف المعانى .

إنها أنثى كاملة : جسم ناضج دافئ حى ممتلئ بفورة الرغبة ، وقلب متوثب متطلع ينشد النعيم ويحن إلى التذوق ، وروح مرحة عابثة خفيفة ساحرة .

إنها أنثى كاملة ، ربطت حياتها إلى جواد كليل محطم كثير الأوراد والتسابيح . أنثى ضاقت بها تقاليد القرية ، فأحاطتها بجدران من فولاذ لا تفارقها ، حتى ظفرت بى فكنت دنياها وكنت فريستها .

كنت أحس أنها تشعر بلذة فى إغوائى ، وتشعر بلذة حين ترانى مرتبكا خجولا ، وتشعر بلذة إذ ترى أنوثتها تغزو قلبى وتملك روحى ، وتتنفس فى أعصابى .

كنت المجال الحيوى لأنوثتها ، فتملكتنى فى عنف وحماسة .

وأسرفت فاطمة فى عبثها ، فما عادت تخجل أن تبدو أمامى متبذلة ، وما عادت تبالى ، فهى تضطجع أمامى ، وتتخذ ما شاءت من الأوضاع .

وأتى المساء وصعدت مع فاطمة إلى أعلى المنزل ، واحتوانا ظلام الليل الذى تضيئه أشعة باهتة من نجوم الصيف .

والليل سحر على الروح والجسم ، والحديث سحر على الروح والجسم .

وكان سمرنا بخوراً فى معبد الشيطان ، وأحسست أن فاطمة اعتزمت أمراً رهيباً ، وأحسست أن روحى قد سرقت . . . سرقها جسمى ، فغدوت جسماً ملتهباً لا شأن للروح به .

وتشعب الحديث ، ومحور الدائرة واحد .

قالت فاطمة :

— أى النساء أحب إلى قلبك : أهى المرأة العبلة اللدنة الناعمة أم الغادة الهيفاء الرشيقة بدلها وتوثبها ؟ وأى العيون أشهى وأجمل وأفتك : العيون المتكسرة فى استرخاء وأحلام واستسلام ، أم العيون المنادية فى تحد وعنف ورغبة ، أم العيون اللامعة الخاطفة فى خبث ومكر ، أم العيون الساذجة المانحة فى دعة وصمت ؟

وما كنت محدثاً لبقاً ، ولا ممهداً للهاوية التى تجذبنى فاطمة إليها . كنت أشبه بالصينى الذى فرغ من تدخين مخدره ، واستلقى يحلم ويسبح مع الأجسام السابحة فى دنيا أحلامه ونشوته .

وأدركت فاطمة بغريزتها حالتى ، فراحت تضحك وتسرف فى الضحك .

لم أكن ثائراً ، بل لقد هدأت تلك الفورة الجسدية الصارخة

وانقضى مساؤنا وعاد الزوج من سمره . ولست أدرى أى صورة كان عليها وجهى فلم أره فى مرآة ، ولكن زوج فاطمة راعه أمرى وأخافه شحوب وجهى فأحاطنى بحنانه ، وأخذ يسألنى عن صحتى ، فطمأنته فى تمتمة سريعة غامضة حاسمة وانسللت إلى حجرتى .

واستلقيت أحلم وأتخيل ، ثم انفجرت العاصفة . . . جن جسمى ، وجن عقلى .

ولم أطق الفراش فوثبت منه ، ولم أطق حجرتى فغادرتها ، وأخذت أحوم فى وَلَهٍ حول باب فاطمة ، وألهبتنى سياط لاترحم ، فغادرت المنزل وأخذت اجول حول النافذة التى تنبعث منها انفاس فاطمة .

ثم أخذت أعدو فى القرية منطلقاً إلى الحقول . أحسست بالغريزة أننى فى حاجة إلى نهك جسمى وتهدئة ثورتى .

وانتبهت على صوت المؤذن يدعو النفوس الحائرة إلى ربها فى فجر يوم الجديد ، فتسللت فى بطء إلى مسجد القرية .

طرق زوج فاطمة باب حجرتى ، ثم ارتد عنها لم يشأ أن يوقظنى . لقد سرة أننى فى سبات عميق ، والنوم عنده علامة العافية .

والتصقت بالفراش وكرهت أن أغادره ، بل لقد اعتزمت أن أقضى به نهارى .

وما كان هذا ليرضى فاطمة ، وما تريده المرأة تريده الحياة ! أيقظتنى فاطمة فنهرتها للمرة الأولى فى حياتى ، فابتسمت ولمع البشر فى وجهها وخطف بصرها فى تيه وعزة . إنها تريدنى غاضبا . هكذا تقول فقد آلمها استسلامى وأدبى !

وألحت فاطمة ، وأصررت على البقاء ، فجلست على طرف الفراش ، وقالت :

— كيف كان نومك بالأمس ؟

— كان نوماً سعيدا .

فاستضحكت قائلة :

— إذن فمن الذى كان يحوم حول باب حجرتى ، ومن الذى كان يدور حول نافذتى ؟

وثبت من الفراش وثبة مجنونة ، وحملقت فيها فى ذعر ورعب صارخاً :

— من ! ...

وضحكت فاطمه ... وبكيت ...

طه عبد الباقى سرور .